الأستاذ الدكتور
صاحب أبو جناح وتحقيق (شرح جُمَل الزَّجّاجيّ)

أ. د. مهدي صالح سلطان

جامعة بغداد ـ كليّة الآداب ـ سابقًا

الملخص

تحقيقَ (شرحِ جمل الزجاجيّ لابن عصفور الإشبيلي) أطروحة الأستاذ الدكتور صاحب جعفر أبو جناح للدكتوراه، نالت مرتبة الشرف الأولى من جامعة القاهرة عام ١٩٧١م، بإشرافِ الأستاذ الدكتور شوقي ضيف، رئيسِ مجمعِ اللغةِ العربيّةِ في القاهرة؛ وقد أجاد الدكتور في دراسته معتمدًا الأسس الصحيحة في التحقيق العلمي الرصين، فأظهر أهميّة هذا الكتاب، بين الكتب النحوية الرائدة المقدمة على غيرها.

فأجاد في الدراسة التي قدّم بها للتحقيق ما يصل بين علم ابن عصفور بمن سبقه ومن تبعه، وعلى صفحات النصّ المحقق كان يحيلُ ويدقق ويناقشُ ويرجِّحُ، ولا يسلّمُ إلا بما يقتنع، ويردُّ ما لا يوافقُ العقلَ والمنطق.

وكان الأستاذ المشرف الدكتور شوقي ضيف قد نوّه بمكانة هذا التحقيق، لأنه استوفى الشروط العلميّة، وحوّل كلّ مسألة من مسائل النحو المبثوثة في الكتاب إلى قضيّة، يعرضها على مصنفات النحو الأساسيّة، وقد استكمل المحقق في هوامش الشرح ما ييّسر الفهم، ويذلّلُ الصعاب على الرغمِ من العناءِ والمشقةِ.

وأدعو إلى إعادة طبع الكتاب وفاء لهذا العالم الجليل واحترامًا لذكراه الطيبة وإسهامًا في التأسيس للتقاليد العلميّة، التي تخلّد الأبناء البررة المخلصين لمجتمعهم، والذين التزموا القيم العلميّة السامية، وأغنوا الحقل المعرفيّ، ورفعوا مقام لغة القرآن الكريم؛ فضلا عن أنّ طبعة وزارة الأوقاف عام ١٩٨٢م كانت طبعة سقيمة، مرّ عليها أكثر من أربعين سنة، وهي مليئة بالأخطاء المطبعيّة التي أساءت لهذا المصدر المهم والمرجع الجليل.

الكلمات المفتاحية : د. شوقي ضيف، د. صاحب جعفر أبو جناح، جمل الزجاجي، ابن عصفور.

المقدمة

الأستاذ الدكتور صاحب جعفر أبو جناح (ت٢٠٢٥م)، كان قد جمع إلى عمق المعرفة نبلَ الخُلُقِ، وبذْلَ الجهدِ في خدمة العلم والتعليم إلى احترام التقاليد الأكاديمية، وإفناء العمر في تربيةِ الأجيالِ إلى التمسّك بالإنصاف والموضوعيّة، والإخلاص للحقيقة العلمية.

ذلك الرجلُ الفذّ، الأنموذج الذي رسّخ القيمَ الأصيلة، التي نتمنّى أن تتواصل في مسيرة طلبته في خدمةِ وطنهم ومواطنيهم، وفي توجههم المهنيّ الحريص على إكمال سيرته الوضاءة، ورسالتِه المستندة إلى القيم الرفيعة، والتقاليد العريقة، والفكرِ السديد، والمنهج القويم، فضلًا عن الجرأة في اتخاذ القرارات المبدئيّة المُنبئةِ عن قوّة الشخصية والثقة بالنفس.

وسأعرضُ في هذا البحث المُختصر: (تحقيقَ شرحِ جُمَل الزَجّاجّيّ لابن عُصفُورٍ الإشبيليّ «٥٩٧ ـ ٦٦٩هـ»)، أطروحة الأستاذ المرحوم للدكتوراه، التي نالت مرتبة الشرف الأولى من جامعة القاهرة عام ١٩٧١م، بإشرافِ الأستاذ الدكتور شوقي ضيف، رئيسِ مَجمعِ اللغةِ العربيّةِ في القاهرة[١].

نعرض هذا الموضوع بمناسبة رحيل الدكتور صاحب رحمَهُ اللهُ، لننبّه على أهميّة هذا الكتاب، وظروف طبعه، في زمن الفتور والضَّعف والتراجع، بعد أن ضربت الحرب أطنابها في الثمانينيّات، وهي الفترة الصعبة التي أنجز فيها طبع الكتاب.

أمّا الذي ضاعف من أهميّة هذا الكتاب أو هذه الأطروحة، في نظر المتخصّصين بلغةِ القرآنِ الكريم، وآدابِ اللغةِ العربيّة، فمكانة الجامعةِ التي منحَت الشهادة، ومقامُ الأستاذ الذي أشرفَ على التحقيق، وبراعة المُحقّقِ ـ أستاذنا الكبير الدكتور صاحب ـ الذي بذلَ الجهود المتميّزة، التي اصطدمت بتواضعِ الطباعة التي أضعفت ما كان يؤمل من هذا الكتاب.

(١) شرح جمل الزَجّاجّيّ ٧/١.

(١)

المشرف وتحقيق الكتاب

كان الأستاذ المشرف الدكتور شوقي ضيف (١٩١٠ ـ ٢٠٠٥م)، قد قدَّم للكتابِ بعد طبعِه، مشيدًا بجهود تلميذه، ومنوّهًا بأهميّة الكتاب، في قوله: (هذا جهد علميّ قيّم نهض به الدكتور صاحب جعفر أبو جناح في تحقيق كتاب من أمهات كتب النحو، هو شرح جُمَل الزَجّاجّيّ لابن عُصفُورٍ، وإحيائه كي ينتفع به الباحثون في تاريخ النحو والنُّحَاة... وقد نال كتاب «الجمل» شهرة مدوية في العصور الوسطى لدقّة تنظيمه وتبويبه وحسن صياغته ويسر أسلوبه، مما جعل النُّحَاة يعكفون قرونًا، متطاولة على تدريسه لطلابهم في مشارق العالم العربي ومغاربه...)[٢].

وقرّر المشرف أنَّ الدكتور صاحب خيرُ مَن درس النّصّ، واستوفى شروط التحقيق العلميّة، لأنّ هذا التلميذ حوّل كلّ مسألة من مسائل النحو المبثوثة في الكتاب إلى قضيّة، يعرضها على مُصنفات النحو الأساسيّة، وقد استكمل في هوامش الشرح ما ييسّر الفهم، ويذلّلُ الصعاب على الرغمِ من العَناءِ والمَشقّةِ، ما جعل (شرح جُمَل الزَجّاجّيّ)، أشبهَ بدائرة معارف نحويّة تستوعبُ

(٢) شرح جمل الزَجّاجّيّ، مقدمة الأستاذ الدكتور شوقي ضيف ١١/١.

أكثـر آراء النُّحَاة، وحوّل عقل ابن عُصفُورٍ إلى عقل يُحصي آراءَ النُّحَاة المختلفين رأيًا رأيا[٣].

فلا يكتفي الدكتور أبو جناح بإحصاء الآراء، بل يناقشها شـارحًا ومعلِّلا أو محتجًّا، نافذًا في أحيان كثـيرة إلى آراء اجتهاديـة جديدة يصـوّر بوضوح الجهـود العلمية المخلصة التي بذلهـا في التحقيق؛ وكذلك في الدراسة التي قدّمها للكتاب، وهو يحاول بـكل ما فيه من وسـعٍ أن يفقَهَ ما يقـرأ، ويفسّره، ويعلّلـه، وإنّـه لتحقيـقٌ جديـر بالشـكر والتهنئة المخلصة الصادقة[٤].

نقول باطمئنان: لا يحصـل أبو جناح على هذه الشـهادةِ الاسـتثنائيّة من هـذا العالـم الجليل، إلّا لرسـوخِ قدمِه في العلم، وبعد اكتمال أدوات البحث بين يديه، حتى استوى منجزُه، وتحقّقَ له ما يأملُ، ويتمنّاه المشرف لتلميذه، فالأسـتاذ الدكتور شوقي ضيف هـو مَن هو في ميدانِ اللغـةِ والأدبِ والنحو والتحقيـق؛ ولهـذا فالتقريـض وسـام كان تقلّده الأسـتاذُ الدكتـور صاحب جعفر أبـو جناح، فكان لـه التقدير العـالي بين المتخصّصـين في علوم اللغة العربيّة، ومَن لهم معرفةٌ في النحو والتحقيق.

(٢)

المحقّق والتعريف بابن عُصفُورٍ

ابـن عُصفُورٍ شـارحُ جُمَل الزَجّاجّـيّ، هو عليُّ بـن مؤمن الحَضرَميّ الإشـبيليّ الأندَلُـسيّ (٥٩٧ ـ ٦٦٩هـ)، العالـمُ الجليلُ، وحاملُ لـواء العربيّة في زمانه في الأندلس[٥]، الذي أنشدوا بحقه[٦]:

نقلَ النحوَ إليـنا الدُّؤَلي

عن أمـيـرِ المـؤمنيـن البطَلِ

بـدأَ النّحـوَ عَلِـيٌّ وكذا

ختَمَ النحوَ ابنُ عُصفُورٍ علِي

وكان أسـتاذُ ابـن عُصفُـورٍ أبا عليّ الشـلوبين (ت٦٤٥هـ) الموصوف بآخر أئمة العربيّة[٧]، وآية الله تعالى في العربية[٨]، وكان ابن عُصفُورٍ من أجلِّ تلامذته، وقد لازمـه وانتفعَ به، حتى قيل: إنه أبرعُ من تخرَّجَ على أبي علي الشلوبين وأحسنُهم تصنيفًا في علوم اللسان[٩].

أمّا تلامذةُ ابن عُصفُـورٍ فمن أبرزِهم أبو حيّان الأندَلُسيّ (ت٧٤٥هـ)، ذلك النَّحويّ البارع والعالم الجليـل، وصاحب التآليف المهمـة، يكفي أن نذكرَ منها: ارتشـاف الضَّرَب؛ والتفسـير الكبير المسمّى بالبحـر المحيـط، فيلحظ المتأمّـل ممّـن تلقّي ابن عُصفُورٍ العلم، ولمن خلَّفه؟!

أمّـا رصدُ الدكتـور (أبـو جنـاح) لمخالفة ابن عُصفُـورٍ للزَجّاجّـيّ، فتعكـس مقـدرة الأول على الاسـتقلال في النظر والاجتهاد، وكذلك التمكّن من المـادّة النَّحويّـة، والإحاطـة بتفاصيلهـا، وإظهار شخصيته النَّحويّة المتميّزة التي أقرّ بها المتأخرون، وقـد قـدروا منزلتـه ومكانتـه، وهـذا مـا ظهر في مؤلفاتهم[١٠].

---

(٣) المصدر نفسه ١/١٢ ـ ١٣.
(٤) شرح جمل الزَجّاجّيّ ١/١٢.
(٥) بغية الوعاة ٢/٢٢٢، وشرح جمل الزَجّاجّيّ ١/٣٣، .
(٦) المقـرّب، تـح د أحمـد عبد السـتار الجـواري ود عبد الله الجبـوري، بغـداد، ١٩٧١، ١١، وشرح جمـل الزَجّاجّـيّ ١/٣٣ ـ ٣٤.
(٧) المتع في التصريف، لابن عصفور، تح د. فخر الدين قباوة، ط ٣، بيروت، ١٩٧٨، ٤.
(٨) شرح جمل الزَجّاجّيّ ١/٢٣.
(٩) المصدر نفسه ١/٣٢.
(١٠) شرح جمل الزَجّاجّيّ ١/٦١.

(٣)
اجتهاد المُحقّق وتدقيقه

كان الدكتـور أبـو جنـاح قـد اختـار المركـب الصعب، في تركه الـشرح الصغير لجمل الزَجّاجّيّ، بعـد أن ابتـدأ بتحقيقه، ذلـك بعد أن وجـد ثلاثة شروح مختلفة لابن عُصفُورٍ: أصغر وأوسط وأكبر، فاختار أكبرَها وأكثرَها عسرًا ومشـقة، وقد تجاوز مـا ابتدأ به من تحقيق الـشرح الصغير، إلى تحقيق الشرح الكبير، ولم يلتفت إلى المصاعبِ[١١].

وقـد وجـدَ الدكتـور في دراسـته لجهـود ابـن عُصفُـورٍ، أنّه يعكـسُ المقدرةَ من الإحاطـةِ بالمادّةِ النَّحويّـة، مسـتقصيًا جزئياتِهـا وتفصيلاتَهـا، ما يكشـفُ عـن شـخصيتِه الاجتهاديةِ، التـي قدَّرَها المتأخـرون عنه حقَّ قدرها، الذيـن أنزلوها منزلتَها التي تستحق[١٢].

وقـد نقلوا أنّ كبارِ النَّحويّينَ المحقّقينَ من بعده قد اتخذوا آراءه، واهتموا بمؤلفاته؛ فيذكر الدكتور أنّ اسـمَ ابنِ عُصفُـورٍ يتردّد، في كتـبِ تلميذه أبي حيان الأندَلُسيّ الذي كان شـديدَ الاهتمامِ بمؤلفاته، والـذي شرَحَ بعضَ كتبِ أسـتاذِه كالمقربِ والممتع؛ ويتكرّر ذكرُه أيضًا في كتب ابن هشام (ت٧٦١هـ)، كالمُغنِـي والتوضيـح، ومثـل ذلـك في مُصنّفـات السيوطي (ت٩١١هـ)، كالهمعِ والأشباهِ والنّظائر، وكذلك في مصنفاتِ الأزهـريّ (ت٩٠٥هـ)، وحتى في كتـب معـاصرِهِ ابنِ مالـك (ت٦٧٢هـ) في شرح التسهيل[١٣]... إلخ.

فجعـل الدكتور أبـو جناح كتـابَ (شرحِ جُمَل الزَجّاجّيّ) في الدراسـةِ التي قدّم بها للتحقيق كتابًا يصلُ مَن سـبقَه بمن تَبعَـه، كتابًا بين كتب أخرى، عـلى صفحات النـصّ المحقق، ذلك فيمـا يحيلُ، أو يعتمـد، أو يدقـق، أو يناقشُ، أو يرجِّحُ، ولا يسـلّمُ إلا بما يقتنع، ويردُّ ما لا يوافقُ العقلَ والمنطق[١٤].

فـلا يقتنعُ على سـبيلِ المثالِ أنّ سـبب وفاةِ ابنِ عُصفُورٍ، التي تُروى عـن ابن تيمية والصفدي[١٥]؛ من أنّ ابن عُصفُورٍ (لم يَزلْ يُرجَم بالنارنج في مجلسِ شرابٍ إلى أن مـات)[١٦]، فيعـرضُ الدكتـور روايةَ الزركـشي التي تقابـل رواية ابن تيميـة: ومُختصر رواية الزركشي، أنّ ابن عُصفُورٍ دخل على السلطان المستنصر (ت ٦٧٥هـ) سلطان تونس وهو جالسٌ بريـاض في قبّة عـلى جابية كبيرة، فقال السـلطان مفتخرًا بدولته: قد أصبح ملكنا عظيمًا، فأجابه ابنُ عُصفُورٍ: بنا وبأمثالنا، فوجدها السلطان في نفسه، فلمـا خرج أمـر بعض رجاله أن يلقيـه في ثيابه في الجابية؛ في يومٍ شـديدِ البَردِ وأمرهـم أن لا يتركوه يصعد مُظهرًا اللعبَ معه فكلما أراد الصعود ردّوه؛ فأصابه بردٌ وحُمّى، وقضى نحبه[١٧].

يقـول الدكتـور أبو جناح: (إنّ المسـتنصر كان معروفًـا بسـعة غضبـه والنـزقِ في تصرفاته، وقد سـبقَ له أن قتلَ الفقيه المؤرخ المشـهور ابن الأبّار القضاعـيّ (ت٦٥٨هـ) بعد أن ضربه بالسـياط، لأسـباب تافهـة لا يجـوز أن تكون سـببًا في إراقة دمه[١٨].

---

(١١) المصدر نفسه ١/١١.
(١٢) المصدر نفسه ١/٦١ ـ ٦٧.
(١٣) المصدر نفسه ١/٦١.
(١٤) شرح جمل الزَجّاجّيّ ١/٥٠ ـ ٥١.
(١٥) بغيـة الوعاة، للسـيوطي، تح مصطفى عبـد القادر عطا، بيروت، ٢٠٠٤، ٢/٢٢٢.
(١٦) شرح جمل الزَجّاجّيّ ٣٧.
(١٧) المصدر نفسه ١/٣٦.
(١٨) المصـدر نفسـه ١/٣٧، عـن تاريـخ الدولتـين الموحديـة والحفصية، للزركشي، تونس، ١٢٨٩ هـ، ٢٧.

ويرجح الدكتور أبو جناح أن تكون الرواية التي يذكرها ابنُ شاكر الكتبيّ، في أنّ (ابن تيمية يدّعي أنه لم يزلْ يُرجَم بالنارنج في مجلس شراب إلى أن مات)[١٩]، قد تفرّعت عن رواية الزركشي؛ وروايةُ الزركشي هي الأقربُ إلى الصحة[٢٠]، فالإلقاءُ في الماءِ قد أوهم الناقلين بأنّه مات غرقًا، كما أنّ معابثة السلطان له وأمره أصحابه بأن يردُّوه كلما خرج أوهم الآخرين بأنّ وفاته كانت بسببِ رجمِه بالنارنج، الذي لا يُستبعد أن يكون بين أيدي الحاضرين آنذاك، لكنَّ الرجمَ بالنارنج لم يكن سببًا في الوفاة[٢١].

ونقول: قد يكون تحاملُ ابن تيمية على ابن عُصفُورٍ، لأنّه يخالفُ هواه في التوجّه والمواقف، ولاسيّما فيما أظهره ابن عُصفُورٍ في استفتاحِه لكتابه «المُقرب»، الذي جاء فيه: (... أحمدُه سبحانَه كما يجب لجلاله، وأصلّي على سيدِنا محمدٍ صلّى الله عليه وعلى آلِه، ورضيَ الله عن الإمامِ المعصومِ المهديّ المعلومِ الذي اطلعَ كوكبَ العدل وقد كان خافيًا، وأوضحَ مذهبَهُ وقد كان عافيًا...)[٢٢].

ويتكرّر مثل هذا من ابن عُصفُورٍ في مقدمته لكتابه (المُمتع في التصريف)، في قوله: (الصلاة على خيرِ من افتُتحتْ بذكرِه الدَّعَوات، واستُنجِحَتْ بالصلاةِ عليه الطلبات، محمدٍ نبيِّ اللهِ وخيرتِه من خلقِه، وحُجّتِه في أرضه، الصادع بالرسالة، والمبالغ في الدلالة، وعلى آله الطيبين الأخيار، الطاهرين الأبرار، الذين أذهب عنهم الأرجاس، وطهرهم من الأدناس، وجعلَ مَودّتهم أجرًا له على الناس)[٢٣].

(٤)

استدراكُ المُحقّق على الشارح

قد يجدُ المتتبع أنّ الدكتور رحمه الله يرصد مخالفة ابن عُصفُورٍ لآراءِ الزَجّاجّيّ، في مواضعَ كثيرة من التحقيق، فلا يكتفي بمجرد شرح الجمل، بل يتحرّر من المتن، وكأنّ القارئ يقرأ كتابًا مؤلفًا، لا شرحًا لمتن كتاب آخر[٢٤]، فلم يلتزم إيراد نصوص المتن، بل اتخذ كتاب الزَجّاجّيّ دليلًا عامًّا، يرتب بموجبه أبواب كتابه، ويعرض مسائله وقضاياه، وكان من منهجه الاعتراض على ما يراه موضعًا للاعتراض، ولاسيما في الحدود والمصطلحات؛ وقد يستعمل عباراتٍ شديدة في الردّ عليه، من مثل: (الذي يدلّ على فساد مذهبه) يقصد الزَجّاجّيّ[٢٥]؛ في حين يُظهر ابن عُصفُورٍ احترام أستاذه أبي علي الشلوبين، في مواضع كثيرة من الكتاب نبّه عليها المحقق.

وقد يستدرك الدكتور أبو جناح في الهامشِ على ابنِ عُصفُورٍ نفسِه، من مثل قوله بشأن مصطلحِ تنوين الترنّم، في مثل الشاهد النَّحويّ[٢٦]:

أقلّي اللوم عاذلَ والعتابن

وقولي إن أصبتُ فقد أصابن

فعند الدكتور أنّ تسمية النُّحَاة لهذا النوع من التنوين فيه تسامح، لأنّ الترنم يحصل بأحرف الإطلاق لقبولها مدّ الصوت بها، وهو يردّ في إنشاد بعض بني تميم، فإذا أنشدوا ولم يترنّموا جاؤوا

(١٩) المقرب ١٠، عن فوات الوفيات ١٥٨/٢.
(٢٠) المصدر نفسه ٣٧/١، عن تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية، للزركشي، تونس، ١٢٨٩ هـ، ٢٧.
(٢١) شرح جمل الزَجّاجّيّ ٣٦/١.
(٢٢) المقرب ٤٢.
(٢٣) ٢١/١.
(٢٤) شرح جمل الزَجّاجّيّ ٥٠/١، ٥٢.
(٢٥) المصدر نفسه ٥٨/١.
(٢٦) المصدر نفسه ١١٠/١.

بالنـون مكان حرف الإطلاق، ويحيـل الدكتور أبو جنـاح لتوثيق رأيِـه على كتاب سـيبويه، الذي جاء فيه: (وأمّا أنـاس كثيرٌ من بني تميم فإنهم يبدلون مكان المَدة النون)[٢٧]، وعلى المغني لابن هشام الذي يقول: (تنوين الترنّم: وهـو اللاحق للقوافي المطلقة بـدلًا من حرف الإطلاق، وهو الألـف والواو والياء، وذلك في إنشاد بني تميم)[٢٨].

وقد ينبّه الدكتور على وهـم ابن عُصفُورٍ، ومنه على سبيل المثال الشاهد[٢٩]:

هما أخوا في الحربِ من لا أخا له

إذا خاف يومًا نبوةً فدعاهما

نسبه ابن عُصفُورٍ إلى قيس بن ثعلبة، فيستدرك الدكتور أنّه لِدُرنا بنت عبعبة من بني قيس بن ثعلبة في رثاء أخويها، مسـتندًا في ذلك إلى ما جاء في كتاب سيبويه[٣٠] وغيره، وكان ذلك الشاهد في الفصل بين المضاف والمضاف إليه بالجار والمجرور.

(٥)

استدراك المحقق على الشارح

ومـن ثقة الدكتور صاحب بعلمه وبنفسِـه، أنّه لا يسـلّم لكلِّ ما يجد في النصّ، بل يفتش في المراجع ليسـتدرك على ما يجدُه من وهـم أو تناقض، ففي الشاهد المعروف[٣١]:

لا تنهَ عن خلُقٍ وتأتيَ مثلَه ....

يُروى بنصب "وتأتي" أو سكونها، فمن نصبها فعلى أنّه قصد النهي عن الجمع بينهما، ومن سكّنها فيحتمـل وجهـين: أحدهمـا من تسـكين المنصوب ضرورة، لكنّ الدكتور يسـتدرك بقـول المبرد: ولو جزم بالتسكين لكان المعنى فاسدًا[٣٢].

ومـن هذا أيضًا ما وجـده الدكتور من تناقض في تخريـج حذف اللام من (تَفدِ) في قولِ أبي طالب رضوان الله عليه أو غيره[٣٣]:

مُحَمَّدُ تَفدِ نفسكَ كلُّ نفسٍ

إذا ما خفتَ من شيء تبالا

وجد حـذفَ اللامِ من (لِتَفدِ) للضرورة في الجزء الثانـي الصفحـة التاسـعة والأربعـين بعـد المئة، وتكـرر في الجزء الثاني أيضًا في الصفحة التاسـعة والثمانـين بعد المئة، لكن أعيد ذكـره في هذا الجزء نفسـه مرة ثالثة بتعليل شذوذه، وذلك في الصفحة الحادية والتسعين بعد المئة، فيعترض الدكتور على التناقض في التوجيه، ويردّ قائلًا، (قوله: لشـذوذه، لا يتفـق وقولـه منـذ قليـل أنـه ضرورة وهو رأي الجمهور وأجازه الكسـائي في الـكلام وأنكر المُبرد إضمار الـلام)[٣٤]، وفي المقتضـب (لا أرى ذلك على مـا قالـوا، لأنَّ عوامل الأفعال لا تُضمـر، وأضعفُها الجازمة...)[٣٥].

(٦)

التحقيق ومراجعة بعض المواضع

جاء في شرح جُمَـل الزَجّاجّيّ لابن عُصفُورٍ: (لا يجوز التفريغ مع الإيجاب والاسـتثناء من محذوف

---

(٢٧) كتـاب سـيبويه، تـح عبد السـلام هـارون، ط ٣، بيروت، ١٩٨٣، ٤/٢٠٦ .

(٢٨) المغني، لآبن هشـام، تـح د مازن المبارك، ومحمد علي حمد الله، ط ٢، ١٩٦٩، ٣٧٨ .

(٢٩) شرح جمل الزَجّاجّيّ تسلسل الشاهد ٩٥٠، ٢/٦٠٥.

(٣٠) كتاب سيبويه ١/١٨٠.

(٣١) شرح جمل الزَجّاجّيّ ٢/١٥٨، الشاهد ٥٥٠.

(٣٢) المقتضب، للمبرد، تـح محمد عبد الخالق عضيمة، بيروت، د. ت، ٢/٢٦.

(٣٣) شرح جمـل الزَجّاجّـيّ ٢/١٤٩، ١٨٩، ١٩١، تسلسـل الشاهد ٥٤٥.

(٣٤) شرح جمل الزَجّاجّيّ ٢/١٩١، الشاهد ٥٥٠.

(٣٥) ٢/١٣٣.

إذا كان ذلك يؤدّي إلى حذف عمدة لا يجوزُ حذفها، فلا تقول: قام إلا زيدًا، لأنّ ذلك يؤدي إلى بقاء الفعل بلا فاعل فأمّا قوله)[٣٦]:

قتلُكَ ابن البتول إلّا عليًّا

.....

في هذا الموضع لا نجد المحقّق الفاضل، قد نبّه على حذف عجز البيت المستشهد به، ولا إتمام النصّ، وتبعه فواز الشعار الذي أعاد تحقيق الكتاب نفسه في عدم التنبيه[٣٧].

نقول هذا: لأنّ (أمّا) تحتاج إلى إكمال جملتها، لأنها حرفُ تفصيلٍ يقوم مقام أداة الشرط وفعل الشرط، التي فسّرها سيبويه (مهما يكنْ من شيء)، فلم يتدارك الباحث الحاجة إلى جواب الشرط المسبوق بالفاء؛ وكان هذا الاقتطاع قد تكرّر في كتاب القرافي[٣٨]، لكن من دون ترك فراغ، مثلما ظهر في استشهاد ابن عُصفُورٍ؛ وتكرّر ذلك كذلك في كتاب القرافيّ نفسه في شرح التنقيح[٣٩]، فيكون القرافيّ قد روى البيت في الكتابين لكن بجعل (قتلك: قاتل)، أي:

قاتلَ ابنُ البتول إلّا عليًّا

مقتطعًا ما استشهد به من دون اعتناء باكتمال اللفظ والمعنى، ومن دون الإشارة إلى حذف عجز البيت، وعنده أنّ معنى البيت: (قاتل ابن المنقطعة عن الأزواج إلا عن عليّ، لأنّ التبتل هو الانقطاع؛ وقيل: سميت فاطمة رضي الله عنها بتولا لانقطاعها عن النّظراء لا عن الأزواج، والكلّ راجع إلى معنى الانقطاع، فاستثنى الشاعر عن صفةِ فاطمة رضي الله عنها بعض متعلقاتها فإنّ المنقطع عنه متعلق بها، لا نوع من الانقطاع)[٤٠]، ويبدو أنّ هذا المعنى الذي جاء به القرافيّ ناقص أو مرتبك من دون إتمام البيت.

(٧)

الاعتذار لمحققنا الفاضل

ما لم يصل إليه الدكتور أبو جناح لم يصل إليه غيره، ممن جاء من بعده، لا من الذي حقق الكتاب مرّة أخرى، ولا من القرافيّ في كتابيه، وكذلك لم يتهيّأ لي على الرغم من البحث الطويل في المراجع والمصادر، ومن ضمن هذه الكتب (مراثي الإمام الحسين بن عليّ في العدوتين المغربية والأندَلُسيّة)[٤١].

نقول هذا: لأنّ بالباحث الجادّ حاجةً إلى معرفة مصدر إتيان ابن عُصفُورٍ بهذا الشاهد، فهل بإمكاننا أن نفترض أنّه صنعه وتابعه القرافيّ ليناسب القاعدة النَّحويّة؟! ويسعفنا في هذا الشأن ما يروى من نظم ابن عُصفُورٍ بعض الأبيات الشعرية، ومنها[٤٢]:

لمّا تدنّستُ بالتفريط في كِبَرِي

وصرتُ مغرى بشرب الراح واللَّعسِ

أيقنتُ أنّ خضابَ الشيب أستر لي

---

(٣٦) شرح جمل الزَجّاجّيّ ٢/٢٥٥، الشاهد ٦٢٩ ؛ وفي التحقيق الآخر لكتاب الاستغناء في أحكام الاستثناء نجد أنّ المحقّق محمد عبد القادر عطا، لم يستدرك على من سبقه، في تعيين قائل شطر هذا البيت أو إكماله، بالتسلسل نفسه للشواهد ٦٢٩، صفحة ٤٦١.

(٣٧) شرح جمل الزَجّاجّيّ، تح فواز الشعار تحت إشراف الدكتور أميل بديع يعقوب، بيروت، د. ت.

(٣٨) ٥٨٣.

(٣٩) شرح التنقيح، للقرافي، علم الكتب بيروت، د. ت، ٢٥٧.

(٤٠) ٥٨٣.

(٤١) مراثي الإمام الحسين بن عليّ في العدوتين المغربية والأندلسيّة، د. صفاء عبد الله، كربلاء، ٢٠١٧.

(٤٢) بغية الوعاة ٢/٢٢٣.

إنّ البيـاضَ قليـلُ الحمـلِ للـدَّنـسِ

ومثل هذيـن البيتين يُذكرُ له بيتـان آخران[٤٣]، هما:

ميسًا إذا ما بطرفٍ ما جرى

ترى البرق يبعـث في إثرِهِ

مُصغَّـر لفـظٍ، ولكـنَّهُ

يجلُّ ويعـظم في قـدرِهِ

لأنّ هذا الشاهد موضوع البحث لو كان من ضمن قصيدة معروفة، متداولة مشـهورة، لأكمله القرافي الـذي جاء من بعده في كتابيـه، أو لخرّجه الدكتور صاحب أبو جناح في تحقيقه للكتاب[٤٤]، أو المحقق الآخر للكتاب نفسـه أعني الأستاذ فواز الشعار[٤٥]، لأنّ الإشـكال كان قد تكرّر مثلما عرضنا؛ وبانتظار من سـيصل إلى حلّ هذا الإشـكال لينفكّ هذا اللغز، ويكتمل لفظ الشاهد ومعناه، وليتعرّف القارئ على القتـل أو القاتـل لابن البتول في هـذا البيت، ودلالة استثناء والده.

وأخيرًا: نفترض أن يكون سـببُ اختفاء التكملة هو هَوى ناسخِ شرح ابن عُصفُورٍ لجُمَل الزَجّاجّيّ الـذي يخالـفُ ما يوحي بـه معنى البيـت، أو كان الحذفُ من تحفظِهِ واحتياطِه، ويشجعنا في التفكير في هـذا الافـتراض، مـا وجدنـاه في اسـتفتاح ابن عُصفُورٍ لكتابيه (المُمتـعُ في التصريف) و(المُقرّب) مثلمـا عرضنا، ونعيـد جزءًا من هـذا الذي نقصد، وهـو قول ابـن عُصفُورٍ: (... رضي اللـه عن الإمام المعصوم المهـديّ المعلوم الذي اطلـعَ كوكبَ العدلِ وقد كان خافيًـا، وأوضحَ مذهبَهُ وقد كانَ عافيًا...)[٤٦]. فيكـونُ المحـذوف من مثل هـذا المضمون، أو قريبًا منه، أو داخلًا في بابه، والله أعلم.

(٤٣) المقرّب ٩.

(٤٤) شرح جمل الزَجّاجّيّ ٢/٢٥٥.

(٤٥) شرح جمـل الزَجّاجّـيّ تحقيـق الأسـتاذ فـواز الشـعار ١/٤٦١.

(٤٦) المقرب ٤٢.

الخاتمة

هذه ملاحظات سريعة استدعتها المناسبة، تدعو إلى التعرّف على الجهود التي بذلها الدكتور صاحب جعفر أبو جناح في تحقيق هذا الكتاب، والتفكير في التوسـع في دراسـة ما أنجزه فيه وفي غيره، واقتراح عنوانات لمباحث نحويّة، أو رسـائل ماجسـتير، أو أطاريح دكتوراه، تدور بمدارِ دراسةِ سيرته، ونشر ما لم يُنشر من مؤلفاته.

عـلى أن لا تنسـيَنا هـذه السرعة في هـذا البحث الإشـادةَ بما بذلـه الدكتـور أبو جنـاح في تحقيق الكتـاب؛ الـذي اجتهدَ وأجـاد في دراسـته، معتمدًا الأسس الصحيحة في التحقيق العلمي الرصين، الذي حـاول أن لا يـترك شـاردةً ولا واردة بها حاجة إلى توضيح إلا وضّحها، أو ناظرَ فيها، أو استرسـل في شرحِها، فأظهر أهميّة كتاب (شرح جُمَل الزَجّاجّيّ لابن عُصفُورٍ الإشبيليّ)، بين الكتب النَّحويّة الرائدة المقدمة عـلى غيرها؛ كتابًا فخمًا، كان عددُ صفحاتِه نحوَ الألفِ وثلاثِ مئةِ صفحة.

وأدعو أخيرًا إلى إعادة طبعِ هذا الكتاب، وفاءً لهذا العالم الجليل، واحترامًا لذكراه الطيبة، وإسهامًا في التأسـيس للتقاليدِ العلميّة، التي تخلّد الأبناء البررة المخلصين لمجتمعهـم، والذين التزموا القيم العلميّة السـامية، وأغنوا الحقل المعرفيّ وأخلصوا للحقيقة، ورفعوا مقام لغة القرآن الكريم.

فضلا عن أنّ من دواعي الإعادة أنّ طبعة وزارة

الأوقاف والشــؤون الدينيّــة العراقيّة عام ١٩٨٢م، كانــت طبعة ســقيمة، مــرّ عليها أكثرُ مــن أربعينَ سنة، وهي مليئةٌ بالأخطاء المطبعيّة، التي لا عَدَّ لها ولا حصر، والتي أساءت لهذا المصدر المهمّ والمرجع الجليــل، عــلى أن تكونَ الإعــادة بإشراف أســاتذةٍ أكفاء يتابعون الطبع، ويميّــزون الطبعات الجيّدة مــن الرديئة، ويتداركون مــا في الكتاب من أخطاء، وليس هناك أولى من دار الشؤون الثقافية المعروفة بالوفــاء للعلماء المبدعين، المشــهود لهــا برعايتهم، ونشر منجزاتهم.

ورحم اللــه الفقيــد رحمةً واســعة، وجزاه عن علمه وعطائه خير الجــزاء، والحمد لله ربّ العالمين والصــلاة والســلام على ســيد المرســلين وعــلى آله الطيبين الطاهرين.

المصادر

- الاســتغناء في أحكام الاستثناء، للقرافي، تح. د. طه محسن، بغداد، ١٩٨٢.
- بغيــة الوعاة، للســيوطي، تــح. مصطفى عبد القادر عطا، بيروت، ٢٠٠٤.
- شرح تنقيــح الفصــول، للقرافي، تــح. طه عبد الرؤوف سعد، القاهرة، ١٩٧٣.
- شرح جُمَــل الزَجّاجّيّ، لابن عُصفُــورٍ، تح. د. صاحب أبو جناح، بغداد، ١٩٨٠.
- شرح جُمَــل الزَجّاجّيّ، لابن عُصفُورٍ، تح. فواز الشــعار تحت إشراف د. أميــل بديع يعقوب، بيروت، د. ت.
- كتاب ســيبويه، تح. عبد السلام هارون، ط ٣، بيروت، ١٩٨٣.
- مجالس ثعلب، تح. عبد الســلام هارون، ط ٣، مصر، ١٩٦٩.
- مراثــي الإمام الحســين بــن عــليّ في العدوتين المغربية والأندَلُسيّة، د. صفاء عبد الله، كربلاء، ٢٠١٧.
- المغنــي، لابن هشــام، تــح. د. مــازن المبارك، ومحمد علي حمد الله، ط ٢، ١٩٦٩.
- المقتضــب، للمــبرد، تــح. محمد عبــد الخالق عضيمة، بيروت، د. ت.
- المقــرّب، تح. د أحمد عبد الســتار الجواري ود عبد الله الجبوري، بغداد، ١٩٧١.
- المتــع في التصريــف، لابــن عُصفُــورٍ، تح. د. فخــر الدين قباوة، ط ٣، بــيروت، ١٩٧٨.أعلى النموذج